مريم رائدة الإيمان في قلب الحوادث اليوميّة

ألأب يوسف عتيشا

ونحن نحتفل باليوبيل الكبير ، الذكرى ٢٠٠٠ لميلاد يسوع المسيح وتجسده ، لا يمكننا إلاّ ان نفكّر في دور والدته القدّيسة مريم العذراء «أيقونة الحب الصافي» كما وصفها قداسة الحبر الأعظم يوحنا بولس الثاني في الصلاة التي وضعها لله الآب . لقد رافقته في مراحل حياته كلّها ، وشاركته في سرّ الفداء ، وهي التي رافقت وترافق كنيسته عبر الاجيال ، وتصحبنا دوما بحنانها وعنايتها الوالدية اثناء مسيرتنا الأرضية نحو السماء (إطلالة الالف الثالث الارقام ٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٤) وبهذه المناسبة ننشر هذا المقال المريمي للأب يوسف عتيشا .

قلم التحرير

يُدعى المسيحي المؤمن الى أن يكون إيمانه منفتحاً على الحياة ، ويتم بينهما مصالحة . كما يُطلَبُ منه أن يترك المجال لإيمانه أن يُشرف على حوادث الحياة كلّها ، لكي تكون حياته بكاملها منتعشة بالإيمان . دأبت الكنيسة على العمل بحسب هذه المنهجيّة منذ بدء هذا القرن العشرين بأنواع شتى من النشاطات ؛ وكان حدث المجمع الڤاتيكاني الثاني الذي تبنّى هذه المهَمّة ووطّد أسسها . وأجاد بخاصّة في استحداث المفردات الملائمة للتعبير عن هذه الروحانية . لذا نرى الكنيسة تسير على الدرب نشطة ، وتتقدم في قلب هذا العالم ساعية لوضع الشركة الكاملة مع الله . كما تبذل الكنيسة جَهوداً كبيرة لنشر كل ما يختبره المسيحي في أعماق كيانها . وبالفعل نرى حركة مسيرة الكنيسة تلج في حركة صلاتها .

تتجّه الكنيسة في السير صوب الآب تحت إرشاد الروح ، وبقيادة المسيح ، وإن الاوقات الكبرى في هذه الرحلة معروفة لدينا . فالسير ، مرحلة تلو مرحلة ، تعيشها تحت نور القيامة ، لتتمكن من إجتياز الصلبان المتراكمة التي لا مناص من وجودها في معترك الحياة . وفي هذه المسيرة ، تسعى الكنيسة جاهدة في اداء شهادة دعوتها كأيقونة للثالوث الاقدس ، وتحتل مريم العذراء مكانة مرموقة . ونحن لم نستنفذ بعدُ ما تركه المجمع الڤاتيكاني الثاني من الأفكار التأمّلية ، إختصرها لنا البابا يوحنا بولس الثاني في رسالته

عن الطوباوية مريم العذراء في مسيرة الكنيسة . ويذكّرنا البابا ، كم هو ضروري أن يسير المؤمنون في داخل الكنيسة متتبعين المسار نفسه الذي أنجزته مريم في التاريخ (انظر رسالة البابا «أم الفادي») .

كما تدعو الكنيسة الى اتخاذ موقف الرجوع الى مريم التي سبقتها ، وتتشفّع دائما لها في شركة القدّيسين ، كي تبقى مترسّخة في الايمان . وتعبّر الكنيسة في صلاتها الى مريم بألقاب كثيرة نُسبت اليها مثل : ملكة السلام ، أمّ الرحمة ، باب السماء الخ . وكلّ ما حظيت به مريم من المشاركة في القيامة مع إبنها ، تتركه يتدفق على كل جماعة او شخص ذي إرادة طيبة . ولكن بالنسبة لنا ، نحن المسيحيين ، إن السلام والرحمة هما المسيح ، فاذا كان لدينا طلبات مختلفة نختصرها في واحدة . نطلب الى أمّنا العذراء ، لتتشفّع فينا ، فيحقّق روح الله فينا ، ما حققه فيها فنتمكن مثلها في اتخاذ موقف البنوّة في حياة المسيح . كما نُدعى أن نقتدي بموقف مريم ، الوارد ذكره في انجيل لوقا مرتين : « وكانت مريم تحفظ هذه الامور ، وتتأملها في قلبها » (لوقا ٢/١٩ ، ٥١) .

وفيما يزداد الإقبال على الحياة الروحية في كل مكان ، حسب شهادة المختصّين بالشؤون الروحية ، نحظى نحن المسيحيين بما إقتنته مريم من الكنوز التي لا تخطر بالبال ، ولا ندّعي اننا قد إستنفدنا ان ننهل من هذا الينبوع ، ولا بدّ من التطرق الى ثلاث نواحٍ ضرورية لحياتنا المسيحية : (١) التأمّل في القلب . (٢) إستقبال الأحداث اليومية . (٣) ثمار الروح .

١ - التأمّل في القلب

نقتبس طريقة التأمّل في القلب من آباء الكنيسة ، ومن المكرّسين في الحياة الرهبانية ، لا سيّما في شرقنا ثم أنتقلت الى الغرب ، وتنقسم الى ثلاث مراحل :

أ - القراءة

تتوقف هذه المرحلة على القراءة المتأنيّة ، وإعادتها في اختيار نصّ من الأسفار المقدسة ، ومن النصوص التي تعرض لنا في القداس . لننتبه الى الكلمات التي تؤخذ كمفتاح ، ونسجّل العبارات التي نتأثّر بها ، او من خلال دور الشخصيّات ومواقفهم التي من شأنها أن تثير فينا الإحساس . وأثناء هذه القراءة ، ينتبه العقل ، وتستيقظ الإرادة بما فيها من مشاعر وأشواق نحو النص الذي كان معروفا لدينا ، ولم ننتبه بشكل كاف الى فحواه . وفي هذه المرة ، تتجلّى أمامنا الكنوز التي ظلّت خافية علينا . قد تأخذ هذه المرحلة الاولى فترة من الزمن ، إن بقينا تحت مفعول الروح القدس ، لنفهم ما يريد ان يقوله لنا .

ب - التأمّل :

وانطلاقا من الملاحظات السابقة للقراءة ، يبحث المؤمن عن العبارات التي تروق له ،

فيصوغها في قنوات منفتحة على الايمان . يتخّذ المتأمل موقف المصلّي وهو ماثل أمام اللّه ، يخاطبه من خلال هذا النص الكتابي ، يعقبه حوار ودّي بين صديقين حميمين . هناك بعض النصوص الرائعة من الكتاب المقدس يتّخذها المؤمن كنماذج . وفي هذه الفترة تتم عملية «الهضم» في مراجعة النصوص ، كما تُهضم اللقمة في الفم قبل إزدرادها. وحتى تنطق الكلمة في الاعماق نتركها تنزل الى القلب ، مستودع قدس الاقداس ، حيث يركن اللّه هناك . انها لحظات رائعة يُغلّفها صمت خاشع .

ج - المشاهدة :

في هذه المرحلة الثالثة ، يتوقّف المؤمن المصلّي عن الحركة ، ويركن الى الهدوء الداخلي وكأنه شاخص بأنظار النفس الداخلية الى مشهد خلاّب وساحر يقف أمامه مندهشًا . لقد مارس يسوع هذه المشاهدة في لياليه الخاشعة ، وهو يناجي أباه السماوي . فالمشاهدة تكتفي بموقف السجود والتمجيد ، وفي الصمت الخاشع أمام الرب المسيح الممجّد في القيامة الفصحية ، قاهر الموت ، كاشف الآب ، الوسيط الوحيد للخلاص ، وموزّع الفرح الانجيلي . وعلى صعيد التطبيق تكون المراحل الثلاث متداخلة ، لكن التقسيم فيما بينها مفيد لمن يمارسها بدقّة .

وقد ترك لنا الآباء أربعة مفاتيح للدخول في صلاة القلب .

أولاً : قراءة مبّسطة للنص : يدعى المعنى الحرفي .

ثانيا : المعنى الروحي ، وتحت تأثير الروح القدس ، يحاول المؤمن الولوج الى عمق المعنى ، تاركًا المعنى الحرفي ، يستقبل المعنى الرمزي . وهذا المعنى يكون محمّلاً بالإيمان ، ويُفهِمنا كيف أن الكتب المقدسة تكتمل في حوادث العهد الجديد ، والإنتقال بها الى المسيح .

ثالثًا : ومن التأمل في المسيح وكنيسته ، نستخلص قاعدة لحياتنا ، إتباعًا لمعنى أخلاقي ، لنعرف كيف نتصرف في حياتنا .

رابعًا : نصل الى المعنى التصوّفي ، لنشاهد الحقائق السماوية ، وحياة المستقبل التي نرجوها . هذا المعنى الأخير يوجّهنا الى الاعالي الى اورشليم العليا .

هكذا يكون التأمل : إختلاء ، النزول الى الاعماق ، واكتشاف الطاقات الروحية ، وعلى مثال مريم التي كانت تحفظ هذا الكلام ، وتتأمل في قلبها (لوقا ٢/١٩ ؛ ٢/٢١) .

يبدو الانجيلي لوقا مكرراً نفسه في سرد هذين النصّين المتشابهين ، في وقتين مختلفين ، مريم أمام المذود ، ومريم في البحث عن يسوع ، وعثورها عليه في الهيكل ، ولا شك أن في كلا النصين نقطة مشتركة . ففي كلتا الحالتين تحفظ مريم في قلبها . يُكتشف المعنى العميق على ضوء القيامة . إنّ نص «تحفظ» يتخذ معنيين مختلفين : الاول ، يشير الى الاتحاد والانسجام بالحوادث المفرحة ، والثاني يشير الى حالة التمزّق إزاء الحوادث المؤلمة التي تشاهدها مريم في حياة إبنها . «حفظت» مريم في المعنى الاول ، الحوادث

التي تنطـق بتمجيد اللّه اثناء الولادة : الملائكة ، الرعاة ، المجوس ، وبعد مرور أثنتي عشرة سنة ، فقد زال دور الفرح ، وأنقلبت الحوادث الى فعل يشير الى إنقسام بسبب الألم . مع ذلك ، كـانت مـريم تحـفظ هذه الذكريات المؤلمة بقلب منفتح كما كانت تقبلها في السابق امام المذود ، نتعلم مثل مريم إستقبال الحوادث المفرحة والمؤلمة معًا بروح الايمان .

العذراء المصلية ، موزائيك ، راڤينا (القرن الثاني عشر)

٢ - إستقبال الحدث :

وعندما ننزل الى معترك الحياة ، ونستقبل حوادثها بما فيها من حلوٍ ومـر نتـسـاءل : كـيف يتمّ هذا الاستقبال؟ هل نكتفي بتحملها فحسب ، أم بالموافقة عليها ؟ فالاستقبال الحقيقي يتم بالأندماج معها ، لتصبح لنا فرصة لإتباع المسيح . ومهما يحدث لنا من حوادث مفرحة او محزنة ، لا بُد ان يكون لها التأثير في إيماننا . فاذا كان الحدث مفرحًا ، فيبدو لنا أن الايمان قد ازداد . اما اذا كان الحدث مؤلما ، فالايمان مُهدّد بالتلاشي . ما أروع هذه المناسبات في تربية ايماننا ليحصل على النضوج ، وحتى نعيش هذه الحوادث بروح الايمان . نتعلّم أن نؤدّي الشكر للّه ، او نصرخ لنعلن بؤسنا أمام اللّه ، من دون ان ننقاد الى حالة التزعزع والشك في الايمان .

وفي هذه الخبرة ، تُعلّمنا مريم ان نتّخذ تجاه الحوادث ، ليس موقف المتفرّج او اللامبالاة ، بل أن نعيشها بروح الايمان .

فإستقبال الحوادث ، مثل مريم ، يعني العيش بالايمان كلّ يوم بروح التواضع ، لكن

الايمان يفتح لنا باب الرجاء ، حتى يحين الزمن ليكشف النور الأمور التي لا تزال عالقة في ذاكرتنا . واذ يرفض تلاميذ المسيح ان يكونوا لعبة تتقاذفهم الحوادث إن كانت لنيل النجاح او المعاكسات ، فإنهم لا يترددون في الإستلهام بمريم . فتُداخلهم الثقة المتزايدة أضعافًا بآله الحب ، فيشهدون مثل مريم على هذه الارض بسموّ الانسان إزاء هذا التاريخ الذي يؤدّي فيه الانسان دوراً فاعلاً ، ومن نواحٍ كثيرة هو الذي يكونهُ . بالإضافة الى ذلك ، يعيش تلاميذ المسيح وسط عالم معرّض دومًا لقطع الرجاء ، فإنّهم يمثّلون حضور الملكوت فيه .

٣ - نعيش ثمار الروح

ولئن كانت مريم الأم ومعلّمة الحياة الروحيّة تعطينا المثال المسيحي الأعلى لإستقبال الحدَث ، فهل يا ترى ستقدّم لنا ايضا ، من خلال شخصها ، الوسائلَ الضرورية للوصول الى إقتنائها ؟ أجل ، يبدو ذلك صحيحًا .

ومن الصفات الروحيّة التي أشرنا اليها اعلاه ، نختار منها أربعًا ، وهي الاكثر تكيّفًا مع عصرنا الحاضر ، وهي النقاط الأساسية التي تغني في الحياة ، ولا يمكن الإستغناء عنها وهي : الذاكرة ، الصمت ، التأمل ، حالة السكينة .

أ - الذاكرة :

للذاكرة دور نشط في إستقبال الوحي الإلٰهي . نتذكّر اللّه الذي يدعو شعبه الى الأمتثال به . لذا يصبح تقييم الذاكرة جزءاً مهمًا من رسالة المسيحيين . ومتى يقدم لوقا في انجيله مريم ، وهي تحفظ وتتأمل كل الحوادث في قلبها ، يدعونا الى أن ننتبه الى أحد الينابيع الأساسية عن طفولة يسوع . ويعلّق أحد المؤلفين عن روحانية مريم قائلاً : من خلال هذه العبارات الواردة في الاناجيل عن مريم ، نحصل على إشارات ثمينة جداً لإكتشاف ايمان مريم ، المنتبهة الى حفظها بأمانة ، لأنها واردة من عند اللّه ، الكلام والحوادث ، والاسترسال في التأمل في قلبها ، أي محاولة التقارب بين بعضها البعض ، وإنارتها بكلام اللّه ، تنقلها الينا اسفار الكتب المقدسة فتحولها مريم الى فعل الشكر في أنشودتها «نفسي تعظم» لتشرق من ثم على حياتها «كل ما يقوله لكم فأفعلوه» (يوحنا ٢/٥) . وفي محاولتنا دراسة العمل ، فإننا نقوم بعمل ايماني يتطلّب منا متابعته في مراحل طويلة تؤدّي الى النضوج تحت تنوير الروح القدس .

ب - الصمت :

ألصمت كذلك ضروري ايضًا . ومما يؤسف له أن نرى أن دوره يتناقص الى حد أن يغدو نادراً في مجتمعاتنا ، برغم الفائدة العظمى التي نجتنيها منه لدى ممارسته . لعلّ هناك حاجة ملحّة في فرضه علينا كواجب مقدس . تجدر الاشارة الى أن الصمت الوارد في الاسفار المقدسة ، مريم قد تشبعت منه ، ليس مجرد غياب الاتصال والعيش في العزلة . إنما هو حالة فريدة من نوعها تساعدنا للقيام بأفضل الجهود للإستماع الى كلام اللّه ، وكلام الآخرين . وقد كتب عن الصمت أحد المؤلفين قائلاً : « لقد استرسلت مريم الى حد أقصى في

الإستماع الى كلام الله حتى أنها أصبحت يوما حبلى بكلمة الله . فقد حُفر الصمت الى اعماق جسدها وقلبها وروحها وكيانها كله ، فأصبحت طاهرة كليًا ، ومستعدة لتعطي جسمها لكلمة الله المتجسّد . ففي صمت الثالوث الاقدس ، وصمت الخليقة كلّها ، مريم تمثّل البشرية ، أصبحت أمّـًا للكلمة الأزلي » . (الصلاة مع مريم أم يسوع . انظر الصلاة في الحياة / ترجمة الأب البير أبونا) .

« إن حياة الالفة مع الله ، وهي مصدر الصلاة المستمرة العميق ، تتطلّب تدخّل مواهب الروح القدس المباشر . واذا أراد الانسان أن يستغني عن ذلك ، فهو يحكم على ذاته بألاّ يكون من المصلّين بأصالة . لذا فالصلاة الصامتة يجب أن تبدأ دومًا بدعوة الروح ، ولا ضير اذا ما أمضينا خمس دقائق او أكثر في هذه الممارسة التي بها يُناط أمر صلاتنا . اذ يستحيل علينا أن نصلّي بدون مساعدة الروح القدس : « لا يستطيع أحد أن يقول : يسوع ربّ إلاّ بإلهام من الروح القدس» (١ قور ١٢/٣) . وهذا الروح لطيف الى الغاية ويحترم حرية الانسان . فلا يتدخل عادةً في نفس ما لم تدْعُه ، وما لم ترضَ بألاّ تعيق عمله فيها . حيث يأتي الروح الينا كمطهِّر ...

ج - التأمّل

ينبع التأمل تلقائيًا من مزاولة الصمت ، وهو نتيجة ناجحة للتحول الذي يجري فيه . وفي اعتكافنا على مزاولة التأمل كل يوم نرتبط بالله إرتباطـًا وثيقـًا ، ويذكّرنا أن نكون تابعين لحبه . وفي اكتشافنا أهميّة التأمل وتعلّقنا به ، يكون لنا بركة ، لأنه خلال الفترة من الزمن الذي نخصّصه له ، نترك المجال لحب الله يتغلغل فينا ، ويحقق فينا أموراً كثيرة ، فنحصل على تحقيق ما إعتبرناه من الأولويات ، كما أن نظرنا يتجدد إزاء علاقتنا مع الآخرين . وللتأمل دور في استعجال رجوع المسيح ، لأنه بالتأمل يتمّ انتظار الروح القدس ، الذي وحده يدعونا الى الفرح ، على غرار مريم المنشدة : « وتبتهج روحي بالله مخلصي» .

د - حالة السكينة

هي حالة جديدة يكتسبها المؤمن تحت أنظار الروح القدس . وكانت مريم الطوباوية حصلت على الحالة لأنها آمنت ، ودعت المؤمنين أن يكتشفوا في حياتها ثمار كثيرة للروح ، كما يقدّمها لنا القدّيس بولس في رسالته الى غلاطية ٢٢/٥ « أما ثمر الروح فهو المحبة والفرح والسلام والصبر واللطف وكرم الاخلاق والايمان والوداعة والعفاف » وتختصر في الطبعة المسكونية للكتاب المقدس ، بكلمة الحب . وما يذكره بولس ليس الا علامات تشير الى ملكية الحب : ما يخصّ الفرح والسلام ليس الا تجلّي الحب ، اما الصبر والصلاح واللطف فهي شروط تحقيق الحب ، وأخيراً الوداعة والعفاف والايمان فهي : جذور الحب .

وقد خضعت مريم كليًا للروح القدس الى درجة أنها أشعّت منها الحب في فرح عميق ، وحالة سكينة تجلّت فيها يوم البشارة . وهي حالة ضرورية لكل عمل رسولي .